



إسرائيل من غير اليهود الذين أتوا إليها من الاتحاد السوفيتي والدول التي نشأت على أنقاضها؟ ويجب عن هذا السؤال: سيكون اقتصاد إسرائيل أقل بنسبة ٢٥٪ إن لم يكن أقل من ذلك. وسنبقى من غير صناعة عالية التقنية. وسينقص عدد جنودنا بنسبة ٢٠٪. سيختلف نظامنا السياسي والديموغرافي على نحو كلي، وبعدها سنطرح السؤال التالي: هل سيكون لهذه الدولة الضعيفة نفس القدرة على مواجهة الصعوبات التي تتشكل أمام إسرائيل اليوم؟ لقد وصل هذا المليون من اليهود السوفيت إلى إسرائيل عن طريق الصدفة، وكان بإمكانهم الرحيل إلى بلاد غير إسرائيل. ولكن الواقع يقول إنه بدون هذا المليون لوقعت إسرائيل في واحدة من أخطر أزماتها في تاريخها. بعبارة أخرى فقد كنا عشيبة التسعينيات على شفا أزمة خطيرة لكننا لم ندرك ذلك على الإطلاق والفضل يعود إلى هذا المليون.

في الفصل الأخير يدق كادمي ناقوس الخطر وينبه إلى أن دولة إسرائيل تمر بأخطر أزمة نظامية في تاريخها. ومثلما يشير فإن الشعب اليهودي فقد دولته ثلاث مرات على مر التاريخ: سقط مرتين ودُمّرت مملكة يهوذا في المرة الثالثة. يقول الكاتب: «ها هي دولة إسرائيل أمام الجولة الرابعة، وفي رأيي إنها الجولة الأخيرة. لن يكون ثمة المزيد من الجولات. لقد تمكن موظفونا عبر الاستفادة من التطورات الدولية والإقليمية من إعادة إنشاء دولتهم وذلك على الرغم من صعوبة الفرص وخلافاً للمنطق التاريخي. لكن اتضح أن ضمان وجود الدولة لا يكفي لحمايتها (...). إن الأحداث المثبتة في هذا الكتاب هي انعكاس جزئي لهذه الأزمة. وإذا لم تُقدم دولة إسرائيل على إصلاحات عامة وجوهرية وجذرية لهايكل الدولة وأنظمتها في غضون السنوات المقبلة فمن غير المرجح أن تستمر الدولة حتى منتصف القرن الحادي والعشرين، أي بحلول قرن على إنشائها، ولن يكون وصول أكثر من مليون يهودي آخر إلى إسرائيل سوى تأجيل النهاية». (ص: ٤٦٣)

الكتاب: حروب غير موثوق بها.

المؤلف: ياكوف كادمي.

الناشر: إيكسيمو / ٢٠١٨ موسكو باللغة الروسية.

عدد الصفحات: ٤٨٠ صفحة

\* أكاديمية ومستعربة روسية



وثقافة. فهل ننتمي إلى قبائل وحشية بربرية تقدر عادات الثأر الدموية؟ ربما نعتقد أننا نقوم بالثأر ولكن بطريقة ثقافية! ولكن أليس الثأر في جوهره هو الثأر مهما تبدلت لبوسه؟ إن الأشخاص الذين يتقيدون بعادة الثأر يتم تقديمهم إلى العدالة، ولكن عندما تُقدم الدولة على ممارسة نفس هذه العادة فإن هذه سياسة شرعية وعادلة. لقد تم تقليص وتجفيف هذه السياسة وحصرها على الغرائز الحيوانية البدائية التي لا مكان لها في المجتمعات المتحضرة، ولكن يبدو أن دولة إسرائيل تفضل الاحتفاظ بممارسة العداة الدموي القبلي كوسيلة لمنع الإرهاب، ولكن، وبالرغم من كل الثأر الذي حدث إلا أنهم لم يحققوا شيئاً (...). إن هذه العادة المتمثلة في رد الفعل الغريزي تكمن بعمق في طبيعة المجتمع الإسرائيلي ذاته وفي مكوناته العسكرية والسياسية وهي موجودة حتى اليوم». (ص: ٤٥٥-٤٥٦).

يقوم المؤلف، وبعد أن شهد الآلاف من حالات الإذلال والإيذاء والاستغلال والعنصرية والتمييز ضد اليهود القادمين إلى إسرائيل من الاتحاد السوفيتي في طرح أسئلة حساسة تضرب في عمق التشكيلة المجتمعية الإسرائيلية، ومن بين ما ذكره من أسئلة: (١) ما الذي يحدد العلاقات الأكثر تعقيداً بين أولئك الذين جاءوا إلى إسرائيل من الاتحاد السوفيتي السابق وبين أولئك الإسرائيليين الذين التقوا بهم في البلد الجديد؟ (٢) كيف ينظر القادمون الجدد إلى إسرائيل والإسرائيليين، وكيف كان رد فعل الوافدين الجدد على الاستقبال الذي لم يتوقعوه؟ (٣) كيف ستبدو دولة

عن تفاصيل هجرة اليهود من الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل أمر غير مقبول، معزية رأيها هذا بخشية الاتحاد السوفيتي من ضغوط الدول العربية لو أن التفاصيل انتشرت، الأمر الذي سيعرض العلاقات السوفيتية العربية للخطر. ولكن، وكما يشير كادمي، فإن السلطات السوفيتية لم تطالب قط بالاحتفاظ بالتقارير المتعلقة برحيل اليهود من الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل في طي الكتمان. يقول الكاتب مضداً هذا الرأي: «على الرغم من كل الادعاءات التي ابتدعها ممثلو الدول العربية وعبروا عنها في مختلف المناسبات، فإن رحيل اليهود من الاتحاد السوفيتي، وهم يحسبون بعدة مئات في السنة، يقابلهم مليون شخص جاءوا من الدول العربية نفسها» (ص: ٦٠).

ويحلل كادمي طريقة العمل في الشعبة التي عمل فيها لسنوات عديدة، كما يقارن بين النماذج المختلفة لهجرة اليهود إلى إسرائيل قادمين من مختلف بلاد العالم، ويخلص إلى أن النهج السوفيتي كان ذا طابع أيديولوجي واضح. فعلى سبيل المثال حاول موظفو «ناتيف» معرفة ما إذا كان من الجائز اتخاذ النموذج الروماني لضمان تحرير اليهود وخرجهم من القبضة الحديدية السوفيتية. ففي كلا البلدين، السوفيت ورومانيا، كان النظام الشيوعي على الطراز السوفيتي هو السائد، إلا أن رحيل اليهود من رومانيا تم مقابل رسوم حددتها السلطات الرومانية كتعريفية لكل يهودي وذلك وفقاً لشهادته العلمية ووضع الأسري وعمره وما إلى ذلك. وكما يذكر المؤلف فإن ردة فعل المسؤولين السوفيت كانت: «قاسية وصعبة للغاية، وبنبرة ملؤها الازدراء والاحتقار أجابوا على طلب إسرائيل: نحن لسنا رومانين ولا نتاجر بالبشر» (ص: ٦١).

ويتوقف المؤلف عند المساهمة التي قدمها شخصياً لتحسين عمل «ناتيف»، فمن الإجراءات التي أقرها توفير الحماية لليهود في بلاد المصدر من بطش السلطات، بل ومرافقتهم في حالة وجود احتمال لوقوع تصادم مع السلطات المحلية، فضلاً عن أنه ساهم في مشروع منح الجنسية لليهود الذين منعهم الاتحاد السوفيتي من السفر إلى إسرائيل.

خلافاً عن ذلك ينتقد كادمي سياسات إسرائيل فيما يتعلق بأمن مواطنيها ويعبر عن فكرته هذه بطرحه السؤال التالي والإجابة عليه: «ما هو هذا الشيء الذي نسميه الثأر؟ إن دولة إسرائيل تتميز حقاً بموهبة الكلام الفارغ. إن ما نعرفه عن القصص شيء آخر يختلف عن الثأر. إن القصص يبدو أكثر جمالية



## حروب غير موثوق بها ياكوف كادمي

فيكتوريا زاريتوفسكايا \*

فضلاً عن روح المغامرة التي تحلى بها، فقد واجه مؤلف هذا الكتاب (ياكوف كادمي) على الدوام تحديات جمة، ولكنه لم يتهرب من مواجهتها، فمن الانخراط في معارك يائسة وفي حروب غير موثوق بجدواها وتناجها، كصراعه مع النظام البيروقراطي الشيوعي من أجل الهجرة من الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل، أو مشاركته في حرب "يوم القيامة" التي ذهب ياكوف كادمي إليها منضماً إلى كتيبة إيهود باراك (رئيس الوزراء الإسرائيلي في المستقبل) أو العمل لاحقاً في المخابرات الإسرائيلية الأكثر سرية "ناتيف". لم يتوقف طموح ياكوف كادمي عند نجاح اختراقه للستار الحديدي للاتحاد السوفيتي وفراره إلى إسرائيل، حيث كان من اليهود الأوائل الذين هاجروا من روسيا إلى إسرائيل، بل واصل طريقه المهني وصعد درجاته حتى أصبح رئيساً لشعبة الـ "ناتيف" (وهي شعبة فريدة من نوعها، مهمتها تنظيم انتقال اليهود إلى إسرائيل) فضلاً عن أنه حقق تغييراً جذرياً في سياسة هذه المؤسسة الإسرائيلية. وبفضل جهود كادمي تم إخراج عدد هائل من اليهود من الاتحاد السوفياتي في أوائل التسعينيات القرن الماضي.

(ص: ٥٠). والحال كذلك فإن حدثاً كحرب الأيام الستة لا يمكن أن يغيب عن كتاب مثل هذا، فنجد أن المؤلف يتحدث عنها ولكن من وجهة نظر ترى الحرب وتقديرها بمنظار التأثير على نضال اليهود في الهجرة إلى إسرائيل. فيكتب أن ظهور الجيش الإسرائيلي في مرتفعات الجولان خلق انطباعاً بأن الهجوم الإسرائيلي على دمشق وسقوط النظام الموالي للسوفييت في سوريا كان محتملاً، وهو ما دفع الاتحاد السوفيتي إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، وبالتالي توقف تيار المهاجرين إلى إسرائيل الذي كان قد بدأ لتوه في اكتساب ديناميكيته. ومثلما يؤكد كادمي فإن هذا الوضع الدقيق نتج عنه إيقاظ الدوافع الكامنة عند اليهود وحفزهم لبذل مجهود مضاعف لهجرة اليهود السوفيت إلى إسرائيل. يقول الكاتب في هذا السياق: «هناك جانب آخر من حرب الأيام الستة وهو أنها وضعت إسرائيل أخيراً في مركز اهتمام يهود العالم. فتحت تأثير هذه الحرب بدأت عملية استثمار قوة ونشاط الشعب اليهودي حول العالم لصالح إسرائيل، وأخيراً انتهت الخلافات بين المنظمات اليهودية بشأن إعادة توطين اليهود في إسرائيل (...) وقد ألهب انتصار إسرائيل في الحرب إلهام اليهود وأدى إلى نمو التضامن الوطني معهم في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك الاتحاد السوفيتي، ما سرّع من اتخاذ إجراءات أكثر حسماً باسم إسرائيل» (ص: ٥١).

وبحسب نظرة مؤلف الكتاب فإن موظفي «ناتيف» ودوائر المخابرات الإسرائيلية كانوا قاصرين عن فهم جوهر العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والدول العربية بشكل كامل، وكان الرأي السائد في إسرائيل أن الكشف

للاضطهاد، وقد كان البادئ في التنكيل بالحركة الصهيونية وتصفيتها من اليهود السوفيت أنفسهم، ونعني بهم الأعضاء في الحزب البلشفي. ولكن، وبعد الحرب العالمية الثانية، حين أصبحت الولايات المتحدة العدو الرئيسي والأخطر للاتحاد السوفيتي (حسب نظرة ستالين للأمر) وحين غدت أمريكا أكبر وأقوى مجتمع يهودي في العالم، حينها فقط أثار وجود اليهود في روسيا مختلف النوازع في الدولة السوفيتية، فأغلق الطريق أمام اليهود للخروج إلى دولة إسرائيل الناشئة وتم عزلهم داخل الستار الحديدي.

لا يقتصر ياكوف كادمي على وضع تحليل عام للمسألة اليهودية في الاتحاد السوفيتي، فيورد في كتابه وقائع مؤثرة وتفصيل جانبية ولكنها غاية في الرمزية وتدل على نمط من الأفكار كان في طور نشوئه آنذاك، يقول في هذه الصدد: «في ريغا (عاصمة لاتفيا) ترأس جوزيف شنايدر مجموعة طلبة لدراسة العبرية. كان شنايدر قنصاً، وإلى جانب تدريسه اللغة لطلبته، كان يلقنهم طريقة استخدام السلاح ويقول لهم: عندما نرحل إلى بلادنا يجب أن نكون مجهزين بمعرفة اللغة وبكيفية إطلاق النار كذلك. وقد تم اعتقال شنايدر بعد حملة سيناء بتهمة عجيبة تماماً: التخطيط لاغتيال الرئيس المصري جمال عبد الناصر (...) في ذلك الوقت قامت أحواض بناء السفن في ريغا ببناء غواصات للأسطول المصري، وزار ناصر عاصمة لاتفيا أثناء زيارته للاتحاد السوفيتي. وقد اندهش الجميع من الاتهام الذي اخترعه المحقق لشنايدر، لكن شنايدر اعترف لي بعد سنوات إسرائيل قائلاً: اضحك ما شاء لك الضحك ولكنني فكرت حقاً في اغتيال ناصر»

يرسم هذا الكتاب الذي صدر حديثاً في موسكو باللغة الروسية مشهداً بانورامياً يغطي فترة تاريخية حاسمة لليهود ولدولة إسرائيل. كما يسلط الضوء على حيثيات مقاومة النظام السوفيتي الذي كان تقدير صرامته، مثلما يشير الكاتب، تقديراً مبالغاً فيه سواء في إسرائيل أو في الغرب. وهو في الوقت نفسه (أي الكتاب) تحليل نقدي للصراع بين الإدارات في هيكل الدولة الإسرائيلية، وأخطاء قيادتها العسكرية التي أسفرت عن خسائر غير مبررة للجيش الإسرائيلي. وإلى جانب هذا وذلك يقدم لنا الكتاب وصفاً لحالات التمييز الخطيرة ضد اليهود السوفيت في إسرائيل، والدعوة إلى إصلاحات من شأنها أن تخرج البلاد من الأزمة النظامية التي وقعت فيها اليوم.

ويوجه كادمي في كتابه نقداً حاداً لا هوادة فيها للجيش الإسرائيلي والمؤسسات الإسرائيلية ونخب السلطة، من اليمين ومن اليسار، وهو نقد مقرون بأفكار الكاتب حول مختلف الأحداث في الحياة العسكرية والسياسية لإسرائيل، وهو أيضاً نقد معزز بوجهة نظر «الوافد الجديد» الذي بذل كل ما بوسعه للعثور على مكانته في «البلاد الجديدة».

يعرض المؤلف صورة كاملة لتاريخ المسألة اليهودية في الاتحاد السوفيتي. فمن المعروف أنه، وحتى قبل الحرب العالمية الثانية، لم تشكل المسألة اليهودية قضية تستحق الالتفات إليها من قبل القيادة السوفيتية، حيث رأى زعيم الثورة الاشتراكية لينين، ومن بعده ستالين، حلاً طبيعياً لها يكمن في الاستيعاب التدريجي لليهود في المجتمع الروسي والسوفيتي. كانت المنظمات والحركات المتطرفة هي وحدها التي تعرضت